الشعر العراقي في القرن التاسع عشر

المصدر: الادب العربي الحديث دراسة في شعره ونثره – د سالم الحمداني و د فائق مصطفى

كانت حالة العراق في القرن التاسع عشر امتدادا للقرون المختلفة منذ احتلال بغداد(٦٠٦هـ). وذلك لأسباب يتصل بعضها بوقوعه تحت الصراع التركي الفارسي ، وللوهن الذي أصيب به خلال تلك القرون التي تختلف فيها سياسية واجتماعية وفكرية ، وربما كان للروح القبلية ، و تحكم العادات والقيم العشائرية أثره في هذا التخلف .

كما أن سوء الإدارة التي تحكمت في ولاياته المختلفة على عهد الأتراك ، كان أشد الأسباب التي انعكست آثارها في تأخره ، وهذا التأخر قد عطل حياة العراق عن حركة التطور ، وضعف نبض قلبه كان يخفق بالحيوية من قبل تلك القرون وإذا كانت ثمة ظروف قد ساعدت على يقظة بعض الأقطار العربية ، كمصر ولبنان وسوريا ، قبل العراق ، فإن هذا الأخير ظل يعاني من التخلف الذي ألمحنا أليه ، بسبب احتفاظ الأتراك بالسيطرة عليه أولا ، ثم وقوعه في براثن الاحتلال البريطاني بعد ذلك . فظل العراق يعاني من سيطرة الحكم الأجنبي ، وحرم من التمتع بحريته وخيرات أرضه ، حتى بعد إعلان الحكم الملكي ، إذ ارتبط بالعديد من المعاهدات مع الانكليز ، والتي قيدت حريته وجعلته يسير في ركاب

وإذا جاز لنا أن نوضح أبعاد هذه الصورة المختلفة . فإن صورة المجتمع العراقي تمثل أول هذه الأبعاد .

كذلك فقد كان العراق مقسمة إلى ثلاث ولايات في ولاية بغداد وولاية الموصل، وولاية البصرة ، وكان حكام هذه الولايات أتراك ، عدا فترة المماليك القصيرة. وكانت الولاية تتركز بيد الوالي ومجموعة من الموظفين ، ومعظمهم من الأتراك أو من الأسر الميسرة التي كانت تربطها بالوالي علاقة طيبة. ولم تكن علاقة الناس به كذلك ، ولا كانت كذلك مع معظم الموظفين في الولاية .

وأشد مظاهر التفسخ في الولايات العراقية ، شيوع الرشوة ،إذ كانت أعلى المناصب والوظائف عرضة للثراء ، ومن ضمنها الولاية نفسها ، وكان

هذا يستدعي صراع على السلطة ، فتشتري ذهم الناس وضمائرهم بالأموال ، التي تجبى - با الضرائب والهدايا التي تجمع ، وتساعد الوالي على الاحتفاظ بمنشيه .

وقد أدى هذا إلى شكوى الناس وتذمرهم . وكان الصراع على السلطة يؤدي إلى - الفوضى والسلب والنهب والقتل .

وكان للوالي مساعدون إداريون ، أمثال الكتخدا و الدفتر دار والقاضي ولخازندار، وينضم اليهم موظفون أقل شأنا بساعد ونهم في أمور إدارتهم ولم تكن هذه الوظائف .

حتى الصغيرة منها - لتتم لأصحابها إلا بالتزلف والمحسوبية ودفع الرشوة مما ينتهي إلى صراع ينسحب أثره على الناس . ولعل من مظاهره شبوع حالة البؤس والشكوى والأمين التي كانت تبدو في قصائد الشعراء .

وعلى الرغم من تحقق هذه الصورة السيئة ، فقد ظهر بعض الولاة في العراق من الذين تركوا آثارة طيبة خلال فترة ولايتهم ، من أمثال سليمان باشا الذي تولى الحكم ما بين (١٨١٩-١٨٠٨) فقد امتاز حكمه (ببعض الإصلاحات) إذ منع عماله من قبول الهدايا والرشوة ... ومنع التعذيب ومصادرة الأموال وألغي بعض الضرائب .. كما قرب العلماء وأكرمهم وأنشأ بعض المدارس وشيد المساجد)) .

وربما كانت هذه الإصلاحات سببا في عزله وقتله.

ومن الولاة الذين بذكرهم العراق بالإصلاح ، داود باشا ، ألذي شيد الأسواق والخانات وحفر الأنهار وبني المدارس والمساجد ، وعني بالعلماء والأدباء والشعراء وقد كان هو نفسه عالما فيما يقال . ولم يكن مصيره أفضل من مصير سلفه للأسباب نفسها .

أما مدحة باشا الذي تسلم ولاية بغداد عام (١٨٩٩) فقد أمتاز عصره بحركة عمرانية وتجارية وصناعية ، وشجع الحركة الفكرية بإنشائه جريدة الزوراء التي أخذت تنشر الأخبار المحلية والعالمية ، وتطلع الناس على ما يجري في العالم المتمدين .

كما امتازعهده بإنشاء مجلس الشورى الذي أخذ ينقد الموظفين ، و كذلك قضى على قطاع الطرق واللصوص ، فشاع الهدوء في الولاية ونقدمت الزراعة ، وتطور الاقتصاد ، فازدادت بذلك واردات الولاية ومن أهم إصلاحاته ، توطين العشائر وتمليكها الأراضي مما أشاع الهدوء والاستقرار يضاف إلى هذا تأسيسه معملا للنسيج ، ومده لخط الترام بين بغداد والكاظمية ، وبناؤه للمدارس الثانوية ، وتأسيسه لمعمل النفط في بعقوبة ، كما سير البواخر في خليج البصرة والبحر العربي لتصل إلى الأسنانة ، بالإضافة إلى إصلاحاته العسكرية والعمرانية الأخرى مصير هذا الوالي المصلح أحسن من مصير سلفيه سليمان ود ود فقد عزلته الدولة ، وقامت بطمس معالم إصلاحاته خوفا من تنبه الناس فيما قال .

وهكذا لم تكن الإصلاحات تظهر في الولايات العراقية حتى تبادر الدولة إلى إيقافها، وطمس معالمها . لذلك فإن الكثير من مظاهرها التي تحققت على أيدي المصلحين ، كانت تؤول إلى الخراب.

ولم تكن الحياة الثقافية أحسن حالا من الصورة الاجتماعية ، فقد انحصر العلم في المساجد وفي المدن ذات الطابع الديني كبغداد والحلة والموصل و النجف والبصرة .

وكانت أساليب الدراسة عميقة ، ومناهجها مختلفة . وموضوعاتها محصررة بالعلوم الدينية واللغوية والتحرية وحسب، ولذلك خلت من عنصر الابتكار ، ولم يتحقق بما تم لها الأصالة والأبداع والتجديد ، إذ كان الطالب يدرس النحو والصرف والمعاني والبديع والبيان والفقه ، فبحفظ متن الأجرومية و ألفية ابن مالك ومغني اللبيب و كان الطلاب يتلقون علومهم على من يتخصص بهذه العلوم أو بعضها ، ولم تكن الدراسة لتخلو من المناقشة والمحاورة ، ولكنها كانت تعتمد التحفيظ والتلقين في الأغلب الأعم . ولعل من أسباب التحالف ، أن ولاية العراق كانت في نهاية القرن التاسع عشر ، تحت الحكم التركي ، و كانت صلتها ضعيفة أو معدومة بالولايات التركية الأخرى ، كما كانت علاقتها بالأقطار الأوربية ألتي قطعت أشواطا بعيدة في العلم والمعرفة والأدب ، معدومة أيضا، مما حرم أهلها من كل جديد ونافع .

كما أن وسائل نشر العلم وذيوعه كالطباعة والصحافة ، كانت شبه معدومة ، فلم يكن العراقيون يقفون على أسباب النهضة العلمية والفكرية والأدبية التي كانت تجري في العالم الأوربي ، بل حتى ما كان يتحقق منه في الأقطار العربية الأخرى كمصر ولبنان وسوريا إلا القليل النادر .

وما يهمنا من هذا هو الشاعر وموقفه في هذه الصورة، وعطاؤه من خلالها ، لقد كانت شخصية الشاعر موزعة ما بين الوالي والأسر الموسرة التي كانت ترعاه وتقدم له ما يعينه على تجاوز محنة البؤس والشقاء والحرمان لكن هذه الصلة قد أساءت إليه إساءة كبيرة ، وقتلت عطاءه حين وقف يتزلف إلى الوالي ويتقرب من الأغنياء طلبا للعطاء.

ولذلك وجدنا معظم الشعراء يلجأون إلى الولاة ، ومن يدور في فلكهم من العوائل الموسرة ، التي كانت تعني بهم ، و تغدق على البارزين منهم العطاء.

فالشاعر عبد الغفار الأخرس كان على صلة وطيدة بالنقيب في بغداد ، والشاعر حيدر الحلي يرتبط بالقزوين في الحلة و آل كبة في بغداد ، ويتجه الشاعر جعفر الحلي بمدحه إلى آل كاشف الغطاء في النجف و آل قزوين في الحلة ، وإلى آل الرشيد في حائل وأمراء المحمرة في كثير من قصائده.

بينما يتجه الشاعر صالح الكواز إلى آل قزوين و آل كبة في مدائحه ولقد سبقت الإشارة إلى أن بعض الولاة ، أمثال داود باشا في بغداد ويحمى باشا الجليلي في الموصل ، قد فربوا اليهم الشعراء ، وأجروا لهم العطاء ، حتى وجدنا شاعر الموصل عبد الباقي العمري ينظم ديوان كاملا هو (نزهة الدنيا بحق الوالي بحبي باشا الجليلي ، كما مدح داود باشا والي بغداد أيضا ، وحين قرب هذا الوالي الشاعر عثمان بن سند ، مدحه الشاعر وألف بحقه كتابة أسماء (مطالع السعود في طيب أخبار الوالي داود)

كما قرب هذا الوالي الشاعر صالح التميمي وكان حصيلة هذه الصلة في معظم الأحيان ، تسجيل مآثر الولاة بالمدائح التي لا تطابق الحقائق . ولقد كانت صلة الشاعر بالوالي تمثل صلة (الأدنى بالأعلى) إذ كان الشاعر يستغل الفاكهة الوالي وصحبه ومنادمته وإدخال السرور إلى نفسه وكان

هذا يسيء إلى موقفه ويقدح في كرامته ويغض من شأنه ويكشف عن زيف فنه وضعف موقعه في مجتمعه ، إذ كان يجب أنينأى عن كل ما يحط من وظيفته الأدبية والفنية .

ومن هنا فقد شاعر القرن التاسع عشر ، الصلة بينه وبين جمهور يتذوق شعره إذ صار شعره يدور في فلك السلطان والوالي ، كما يجوب أحيانا قصور الأغنياء أو بيوت الولاة ، مع أن معظم هؤلاء وفي مقدمتهم السلاطين والولاة لم يفهموا الشعر ولم يتذوقوه .

وهذه الصورة تبيح لنا القول ، بأن الشعر كان وسيلة للاستجداء والتزلف والنفاق .

وقد أدى هذا إلى أن يفقد الشعر العربي في القرن التاسع عشر هويته العربية ويستدل على هذا ، بالموقف المزري للشاعر عبد الباقي العمري حين مدح الوالي علي رضا باشا لفتكه بقبائل كعب العربية بما يجعل هذا الانتصار أعظم من يومه الشاعر العربي بهذا الغض من قيمة قومه العرب ، فيعمد إلى إهدار كرامته حين يتمنى من لي بتقبل كف صوب عارضها يزري بواكف صوب العارض الهطل قار ، ولا يقبل يد هذا الوالي المظالم فيقول:

عبد الغفار الأخرس بإذلال نفسه حين يتمنى عودة الوالي داود باد ويمعن الشاعرالفيل قدميه .

وهذا قدح بمصداقية تجربته أيضا .

و دليل انحطاط صورة الشاعر وفنه.

كما أنها دليل على حالة الانفصام التي كانت تسود علاقة الشاعر بمجتمعه وحكامه.

الشعر وموضوعاته :

خلصنا في الصفحات الماضية إلى أن شاعر القرن التاسع عشر قد فقد خصوصيته ألتي ميزته من غيره من الناس أو كاد ، وذلك حين فقد انتماءه للفن ، وإحساسه بمن حوله من الناس ، وحصدقه في تجربته .

وبذلك فقد شعره ووظيفته الإنسانية ، حين تجردت من هذه المصامين .

وقد أسلمته هذه الحالة إلى الاتكاء على الموضوعات التقليدية التي ورثها عن الشاعر القديم ، لكنه أساء استخدامها حين هبط بها شكلا ومضمونة.

ولو أستطاع أن يجاري شعرنا العربي القديم كما فعل البارودي لهان الأمر ، لكنه راح يجري وراء شعر فترة الانكسار الحضاري فيقلدها و التقليد ، ويجري وراء مضامينها فتعجزه القدرة ، ويحاول أن يصل شأوها فلا يستطيع .

وبذلك كان هبوطه بالشعر أشد من شعر فترة الانكسار الحضاري نفسها .

ومن هنا قد نفسه بالموضوعات التقليدية ، من مديح ورثاء وغزل ووصف ، وحين حاول أن يعبر عن حياة العصر في الموضوعات السياسية والاجتماعية ، وفي بعض القصائد القومية خانته القدرة ، إلا القلة القليلة من الشعراء الذي تركوا قصائد نادرة فيها ملامح فنية أو شعورية ، تجاوزت مستوى قصائد العصر ، ولو كتب لها أن تشق طريقها ظاهرة مميزة لشفعت للعصر ولعطائه الفني .

يضاف إلى هذا القصائد الإخوانية ، التي شكلت ظاهرة سيئة لشعر العصر.

ويحتل المديح مكان الصدارة في شعر القرن التاسع عشر ، لصق الشاعر فيه وصدق فنه ، و تعدد معانيه ، وسمو أفكاره ، فهذه كلها تكاد تكون سلبية كلها ، ولكن لامتداد مساحته على من قيلت فيهم قصائد المدح ، فمن مدح السلطان إلى مدح الوالي فمدح الرسول صل الله عليه وسلم وآل بيته ثم مدح الموظفين.

أما مدح السلطان في هذا القرن ، فقد كان طريقة للزلفي و كسب المغانم الشخصية ، لذلك لم يسم إلى منزلة فنية عالية.

وكان يخلو من جمال الأداء وروعة التعبير ، ومن العواطف الجياشة والأحاسيس الفياضية .

ذلك هو خلوه من المشاركة الوجدانية ، ومن صدق الموقف الشعوري ، لأن الدافع فيه كان المصلحة المتبادلة بين الشاعر وممدوحه .

من هنا فقد أضفى الشاعر علي ممدوحه صفات (خليفة الرحمن) أو (خليفة رسول الله) فهذا هو عبد الغفار الأخرس يقول لممدوحة السلطان عبد العزيز

ويبدو أن شاعر القرن التاسع عشر قد أتكأ على الإسلام في مدائحة السلطانية ، لأن هؤلاء السلاطلين لم يكونوا عربا ، كما أن الإسلام كان وسيلة المادح للوصول إلى الممدوح الذي يجعله هو الآخر سببا لتأكيد أوامر الوحدة بين المسلمين.

ولم يقف الشعراء عند حدود مدح السلطان ، بل تجاوزوهم إلى من له صلة بهم كأولادهم وإخوانهم وأحفادهم .

ومن أكثر المعاني ورودا في مدائح السلطان ، تلك التي تتصل بالجهاد ضد الأوربيين الذين حاربوا الدولة العثمانية ، أو التي تتصل بالفتن الداخلية ، ومنها ما تعلن بمقاومة العثمانيين للحركة الوهابية .

وفي هذه المدائح صار الشعراء ظلا للسلاطين ولسان حالهم ، فيهم يعادون من يعاديهم ويفرحون بانتصاراتهم ، حتى لو كان أولئك الخصوم عربة يدافعون عن حقوقهم، ويقاومون ظلم السلطان .

ولقد سبق أن أشرنا إلى تهنئة عبد الغفار الأخرس وعبد الباقي العمري للسلطان ولواليه علي رضا باشا ، حين قضي على ثورة العرب في منطقة المحمرة وكذلك فعل الشاعر صالح التميمي حين نكل السلطان بإحدى القبائل العربية فقال:

من هنا فإن الدارس لهذه المدائح ، لا يسعه إلا أن يشك في صدق أصحابها فنا وشعورا ، وقد كان للعديد من الولاة نصيب وافر من هذه المدائح ، كداود باشا الذي

مدحه عبد الغفار الأخرس وصالح التميمي وعبد الباقي العمري و عثمان بن سمند .

وقد تميزت مدائح الشعراء للولاة الذين قاموا بالإصلاحات بذكر أعمالهم الإصلاحية ، والاعتراف بإكرامهما الأدباء ورعايتهم للبلاد، ولكن تلك المدائح كانت مشحونة بالذل والصغار ، لأن الشعراء كانوا يغمضون أعينهم عن الجوانب السلبية لأولئك الولاة ويتجاوزونها في مدائحهم ، طمعا في مغنم، أو وصولا إلى جاه .

وعلى هذا قامت مدائح الشعراء للعديد من الولاة أمثال عاكف باشا وعلي رضا باشا وسري باشا ومحمد نجيب باشا و محمد رشيد باشا ونامق باشا ويحيى باشا وغيرهم.

ولقد سبق أن أشرنا إلى ظاهرة من أسوأ ظواهر الصلة بين الشعراء والولاة ، وهي التي تعكس حالة التدني التي أصيب بها الشاعر هذا القرن ، إذ كان يعد نفسه نديما للوالي فيؤنسه ويحقق بمنادمته له مفاكهة وانبساط ، وهكذا هو أشد أنواع الهبوط بالفن الشعري .

ولم تختلف الصلة التي كانت تربط الشاعر بالسلطان عن الصلة التي ربطته بالوالي ، لأن الهدف في الحالين واحد، ولذلك فإن أعداء الوالي هم أعداء الشعراء ، بل هم أعداء الله وأعداء الدين .

.

ومدح شاعر هذا القرن ، الموظفين أيضا ، لما كان في موقعهم من تأثير في العطاء أو تقريب إلى والي أو سلطان ومن هؤلاء (الكتخدا والدفتردار). وراح الشعراء بمدحونهم ويتوسلون إليهم في طلب الحاجة. فقد استرضى عبد الباقي العمري الدفتر دار ، عندما لم يكترث له و أهمل شأنه ، ومنعه من مزاولة وظيفته.

وتقول الرواية أن الدفتر دار أهتم بأمره ودقق به وترك له التصرف بأمر وظيفته)

وقد امتدت مدائح الشعراء إلى صغار الموظفين الذين كانوا يتعمدون إهمالهم سعيا إلى مدحهم والتقرب إليهم وهكذا تدنى شاعر القرن التاسع عشر إلى الحضيض ليفقد ما تبقى له من كرامته ، ولذلك هان عليه فيه أيضا ، ووصل إلى ما وصل إليه .

ومن المدح، مدح الرسول محمد صلوات الله عليه وسلم ، ومدح آل بيته أيضا .

وقد تميز قسم منه بصدق الموقف وحرارة العاطفة ، لكن معظم، ظل محتفظة يضعفه الفني ، إذ لاذ بمعاني القدماء ، وسلك أساليبهم ، وعول على الكثير من أفكارهم.

المدائح النبوية ، تغنى الشعراء (بمزايا الرسول الحميدة و أخلاقه السامية حتى بلغ بهم حد السخف فوصفوا له المعجزات والخرافات التي يبرأ الدين والرسول منها ، وبالرغم من صدق الوطنية فقد كان جله ركيك العبارة : ضعيف البناء) ومن أشد الظواهر الفنية في مدائح الرسول ﷺ ، معارضة شعراء القرن التاسع عشر للمدائح النبوية ، التي تغنى بها أصحابها بالرسول الأعظم ، وخصوصا مدائح البوصيري .

الهمزية واللامية والبردة ، فقد خمسها الشعراء وشكروها ، ومدحوا من قام بالتخميس والتشطير ، وما ذلك إلا لما تتميز به من صدق أصحابها وعمق تجاربهم وحرارة عواطفهم ، وهو أمر مقبول من حيث المبدأ، ولكن الذي ترفضه هو أن شعراء ذلك القرن قد هبطوا في تقليدهم لها هبوط شديد من الناحية التقنية على الخصوص ، لأن قدراتهم لم تسعفهم على أن يصلوا مستواها أو يتفوقوا عليها.

وخمسها كذلك عثمان بك الجليلي .

وكان للبردة نصيب وافر في شعر شعراء ذلك القرن ، فقد شطرها عبد الوهاب النقشبندي ومحمد سعيد الحبوبي .

وفيما عدا التخميس والتشطير ، فقد استشف العديد من الشعراء، من مدائح البوصيري روحها ومعانيها ، فنظموا مدائحهم النبوية ، ولا يستطيع المجال هنا لذكر تلك القصائد لكثرتها كثرة مفرطة.

أن الشعراء قد أيقنوا أنهم في مدائحهم تلك ، كانوا يتقربون من شخصه فكانت واسطة يتقربون بها إلى الله ويطلبون بوساطتها الشفاعة من رسوله الكريم ، ولقد انحصرت تلك المدائح في مجموعة من المعاني أخذها شاعر عن شاعر ويتصل معظمها بشخصه الكريم ، في أخلاقه ومثله وصفاته ومعجزاته وما حققه للإسلام وجاءت تلك المدائح تعلي" لما سبقها في المعاني والأفكار والصور والأساليب والبناء في المطلع وفي غير المطلع .

أما مدائح آل البيت ومراثيهم ، فقد اختصت بال الرسول صلوات الله عليهم ، وتركز في قصة استشهاد الحسين في معركة الطف ، وما صاحبها من صور المآسي والآلام التي زاد عليها الشعراء وبالغ فيها المؤرخون ، بحيث أصبح لها طابعها المتميز ، بما يثير العواطف ويعمق المشاعر.

وقد برز في هذا شعراء كثر أمثال حيدر الحلي و جعفر الحلي والقزويني و التميمي والطباطبائي و الخضري و آب كموية . وقد ترجم (محمد علي اليعقوبي شاعرا ، ولو أضفنا إليهم شعراء النجف و كربلاء والكاظمية وبغداد لفاق العدد مئات الشعراء يضاف إليهم عبد الباقي العمري وعباء الغفار الأخرس و محمد شيت الجومرد والعشاري ، أما تقربا إلى الله أو طلب لشفاعة رسوله ﷺ او تنفيسا عن الالآم ويقف حيدر الحلي في مقدمة الذين مدحوا آل البيت ، وامتاز مدحه بتدفق العاصفة وعمق الشعور رمصدق التجربة ، ولاميته التي مدح فيها الحسين وآل بيته.

والقصيدة طويلة ، تحتشد بمعاني الشجاعة والبطولة والعزة والكرم ، ونصف مواقف الحسين وصحبه في معركة الطف ألني أبلوا فيها ضروبة من البسالة التي أحتفظ بها التاريخ الأدبي والسياسي والخلود .

ويليه في هذا الرثاء ، الشاعر جعفر الحلي ، الذي فاص شعره بالعواطف السامية والمشاعر الدافقة ، ولكنه لم يخرج عن المعاني التي أشرنا أليها .

ويضاف اليها ما يتصل بال الرسول من كرم المحتد وأصالة النسب وروعة الخلق والصبر على المكاره والتجلد في المواقف الصعبة .

ولقد تميزت مدائح آل البيت ومراثيهم بعد الخيال الذي أثاره وقوع الحسين شهيدا وما آل أليه صاحبه من النساء والرجال بعد استشهاده ، وما حل بهم من مصائب ومحن .

وقد تحدث الشعراء في مدائحهم عن استشهاد الامام علي والحسين ، ونعتوهما بأفضل النعوت ، ووصفوهما بما يحل عنه الوصف ، حتى ليمكن القول أن كثرة منه قد أساءت إلى الذين قيلت فيهم تلك الأوصاف ، لأنها قد تجاوزت حدود صفات البشر.

ومهما يكن من أمر هذا المدح . وما يتصل به من رثاء . فإنه يعد سجلا حافلا يزخر بصور العظمة والكبرياء ، التي توافر عليها الأمام علي و وأولاده وصحبه ، كما أن الشعر على الخصوص صار وثيقة تاريخية لا يمكن الاستغناء عنها بحال من الأحوال .

أما الشعر الصوفي فقد أتصل بالطرق الصوفية المعروفة في العراق وهي ثلاثة :

الطريقة الرفاعية التي ينتسب أصحابها إلى الشيخ أحمد الرفاعي ، والطريقة القادرية التي ينتسب مريدوها إلى الشيخ عبد القادر الكيلاني ، ثم الطريقة النقشبندية ألتي وطد نفوذها في العراق الشيخ خالد النقشبندي .

وعلى الرغم من أن الشعر الصوفي في حقيقته يتصل بجوهر العقيدة الإسلامية .

كما كان من قبل ـ إلا أن شاعر القرن التاسع عشر قد أساء فهمه هذه العقيدة ووقف حٌل شعره على ما يتصل بكرامات هؤلاء الشيوخ والمريدين الذين ذكرناهم ، إذ تحدثوا عن خوارقهم ومعجزاتهم ، وخرجوا بمعانيهم على ما يتصل بجوهر الإسلام وروعته و عمق مفاهيمه وسلامة أفكاره .

فلقد ابتعدت معاني شعراء الصوفية عن تأكيد جوهر التصوف ، واكتفت بتأكيد خوارق رجالات الصوفية وما لفق بها من خرافات وأوهام لحقت بها ، وشوهت مضمونها الأصيل، كأثبات علم الغيب ، والحضور والإسراء وأمثالها ، مما علق بالفكر الصوفي منذ أن أنحرف ووصل أوج انحرافه في القرن التاسع عشر .

وهكذا أضاع الشعر الديني (الإمكانية الضخمة التي أتاحها له الدين ، كما أضاع غيرها من الإمكانيات .. فإذا بالاتجاهات الثلاثة مدح الرسول ورثاء آل البيت والشعر الصوفي تسهي إلى شكل من أشكال التقليد والضعف والبعد عن عالم الفن الأصيل المبدع ، فقصائد المدح النبوي صارت نظماً لسيرة الرسول وسردة لصفاته وأخلاقه بشعر مرائي آل البيت ، ينتهي إلى ندب سنوي يلقي على منابر العزاء يجيده الشاعر ويحسنه لاستدرار الدموع على آل البيت ، وما حل بهم ، و تصوير مصارعهم ونكباتهم

وحرص شاعر الطريقة على اثبات معجزات شيخه وخوارقه غير المعقولة)"

وعلى الرغم من انحطاط الفكر أو نضوبه في شعر القرن التاسع عشر ، فإن القارئ يفاجأ أحيانا حين يجد كشرة من الشعراء تستنفر حساس

الناس وتستفز عواطفهم، وتنتقض على الأوضاع النائية ثورة و تمردا حينا ، وشكوى و أنينا حينا آخر تعبر به عن ضيق نفسها بما تجده من انحراف في موازين الحكم ، أو بما تراه ظلم و استبدادة ، أو بما تؤكد فيه انتماء للأمة العظيمة التي مصر تاريخها الأمجاد و هكذا يجد المرء شعرا سياسية وقومية لا يمكن تجاهله ، بل أن من الكثرة أحيانا ما يقدم للدارسين مادة ناضجة نمدهم بالظواهر الأدبية) .

ولكن الدارس لشعر هذا القرن لا يفاجأ بوجود ظاهرة الشعر السياسي الثائر أو الناهض ، وذلك حين يجد في القرن نفسه عوامل توطد لهذا الشعر وتؤدي إلى ظهوره ، فقد كانت المشاكل السياسية التي وجدت في هذا القرن ، نتيجة ضعف الحكم واختلاف المذاهب ، تنتهي في كثير من الأحيان إلى ضيق الناس بالأوضاع ، وتمردهم الأمر إلى الثورة .

وكانت الدولة تهيئ لمثل هذه الثورات الحملات العسكرية بهدف القضاء عليها ، ويستنفر الشعراء مع المقاتلين ، أو ينقلب الشعراء أحيانا ضد السلطة الحاكمة فينضمون قصائدهم ثائرين أو متمادين أو بائسين ، لما يحيق بالبلاد من عسف وظلم .

ومن جهة ثانية كانت حروب الأتراك ضد أعدائهم تثير في نفوس الشعراء عواطف دينية أو سياسية وقومية ، فإذا بشعرهم يصير چلا لمبادئهم القومية ، ولعواطفهم الدينية ، ولنخوتهم العربية.

ويترك صراع الأتراك والفرس على احتلال العراق أثره في نفوس الشعراء، ويستنفر ذلك مشاعر الشعراء العراقيين ، فيعيرون عنه بالفكر الناضج ، والمعنى الهادف.

وحين دخل الوهابيون العراق وهددوا بزحفهم العديد من الأماكن المقدسة قاوم الشاعر العراقي ذلك بما ينم عن حرصه على أرضه و تقديسه لمعتقداته كما كان لبعض العوامل الاجتماعية أثر في وجود الشعر السياسي ، كانتشار الفقر الذي يهيئ للشاعر موضوعاً احتجاجية يحقق به هدفا سياسية .

وكان لاختلاف المذاهب والطبقات والقبائل مع بعضها البعض من جهة، وبينها السلطة الحاكمة من جهة أخرى تأثير في ظهور الشعر السياسي .

وربما كان لإحساس الشاعر أحيانا بالذل والمهانة على يد الحكام الأتراك سبب في الجوئه إلى الماضي البعيد ، الذي حفلت صورة بالأمجاد والبطولات ، وامتلأت صفحاته بالمعارف والعلوم ، وشهدت وقائعه المتوحات ، فإذا بهذه الصورة تثير في نفس الشاعر إحساسه الشديد بعروبته ، وحماسة قوية تجاه أمته ، وإذا هو يشكو ويتألم أو يثور فيتمرد ، وما هذه الشكوى والثورة إلا نتيجة الإحساس بالواقع المزري الذي يعيشه الشاعر و تعيشه الأمة كلها .

على أن هذا لا يعني أن الشعر – كل الشعر – قد أتجه هذا الاتجاه الإيجابي ، فثمة شعر كثير سار في ركاب الحكام الأتراك ، وصار صاحبه امعة مع الناس ، يحوم حول الحاكم ويسير من خلفه مؤيد ومدافع ، ولكنه على أية حال يمثل الوجه السلبي من هذا الشعر الذي يمكن أن نسميه بالشعر السياسي.

وقد اختلفت معاني هذا الشعر من شاعر الآخر ومن تلك المعاني دعوة بعضهم الى الهجرة تخلصا من سيطرة المحتلين وتجنبا لظلم الحكام ويقف الشاعر عبد الغني الجميل في مقدمة الداعين الى هجرة البلاد تخلصا من الذل.

وهذا بلا شك فكر خالف أفكارهم التي تذللوا بها للولاة والحكام .

والذي ينضح أن صرخات الشعراء وطلبهم الهجرة ، كان تحقيقا لما يبدو في أنفسهم أحيانا من احتجاج على الأوضاع القائمة ، كما يدل على مدى ما كان يكابده الناس من جور وعسف و شعور بالغربة في أوطانهم .

وطلب الهجرة لم يكن المعنى الوحيد الذي عبر به شاعر القرن التاسع عشر عن احتجاجه على الأوضاع الفاسدة ، فقد كان شعوره بالعزلة وبكثرة العسف الواقع عليه وبالمكابدة النفسية المتأتية عن احتقار الترك له ، كل ذلك كان يؤجج في نفسه الشعور بعزة الأمة و كرامتها وعظمتها ، لا من خلال نفس الشاعر أو واقع أمته ، ولكن من خلال ماضيها الحافل بالأمجاد والبطولات والفتوحات، فإذا هذا كله بصير في يد الشاعر وسيلة للتغني والاحتفال بتلك الأمجاد ويظهر أن الاعتزاز بماضي الأجداد قد أججه ما كان يبدو من صراع بين العرب والترك ، والذي بدت بوادره

تظهر ببروز النزعة القومية العربية ، فأخذ الشاعر العراقي يتغنى بعروبة الأجداد ومفاخرهم ويفاخر بمآثرهم ووقائعهم".

وقد عبر شاعر القرن التاسع عشر عن ألمه الشديد حين يئس من تحسن الأوضاع فراح يشكر الزمان ويلقي اللوم على الدهر الذي يحارب الإنسان بلا هوادة.

ولاشك أن هذا الأنين ، مثل صحوة مبكرة انتهت فيما بعد إلى صرخة تؤجج الحس القومي لشاعر هذا القرن ، كما أنها تؤكد أن هذا الشاعر بدأ يتململ من سباته الطويل الذي عطل كل إمكاناته الشعورية على مدى عدة قرون ولقد راح شعراء القرن التاسع عشر إلى أبعد من ذلك حين صوروا فساد الحكم ، وظلم الولاة ، وما جره ذلك من ويلات على البلاد .

وعلى الرغم من أن ذلك لم يكن نقدا قاسية ، إذ سبق أغلبه بأسلوب الشكوى والأنين ، إلا إنه ـ كما ذكرنا ـ كان يفصح عن تململ الشاعر العراقي وعن ظهور صحوته التي طال شباتها عدة قرون .

لكن هذا لا يمنع من وجود مجابهة صريحة تمتلك الجرأة في تجسيدها الأوضاع الفاسدة والسياسية المتهرئة ألتي شكي منها الشعراء ، ومنهم عبد الباقي العمري .

هذا علما أن العمري كان واحدا من الشعراء الذين تدنوا في مدح الولاة والى حد قد وصل الحكم فسادا وضعفا.

ولم يكن العمري وحده قد أطلق مثل هذه الصيحات ، فقد وجدنا مثلها لدى الغفار الأخرس و محمد جواد الشبيبي ومحمود شكري الألوسي وعبد الغني و شيئا فشيئا تتطور هذه الشكوى ، ويتغير معها أسلوب الأنين ، ليتحول إلى اعتداد بالحرب القومي الذي يصحبه تمرد وثورة واعتداد بمآثر الأجداد.

والواقع أن هذه الصيحة لم تكن سوى تعبير عن آلام العراقيين وصرخاتهم ولو من الطريف أن نسجل لعبد الغفار الأخرس أبياتا لأحدى قصائده النقدية التي يصور في الحكام على عهده.

ولولا أن فساد الوضع قد بلغ مداه آنئذ، لما وجدنا هذا الشاعر وأمثاله من الذي مدحوا الحكام و تدنوا في مدحهم ، يطلقون هذه الصرخة الناقدة ، ولكن صبرهم في يبدوا ، قد نفد حتى طفح الكيل .

من الموضوعات الرئيسة التي عالجها شعراء القرن التاسع عشر ، الشعر الاجتماعي مقدمتها ، وصف مجالس الخمرة ووصف الأسمار وبعض الموضوعات الفردية العامة والواقع أن الشعر الاجتماعي في القرن التاسع عشر ، لم يصل كالشعر السياسي في مستوى نضوجه الفكري ، وفي صدق بعض جوانبه ، إذ لم تكن هناك عوامل تؤججه ، وتمنح الشاعر مادة لتجاربه الاجتماعية ، فالمجتمع كان جاهلا متخلفة و قانعا صبورة .

وكان الشاعر نفسه بفقد بعض عناصر الموقف الشعري وتجربته الصادقة ، وهو الحرية الفردية والحرية العامة. وما يقظته القومية والسياسية التي رأينا وجهها الإيجابي عند بعض الشعراء، إلا نتيجة لظهور المفاهيم القومية والنزعات السياسية التي وصل بعضها إلى أسماع الشاعر ، ونتيجة العسف والضغط الذي وقع على الناس واستنفر مشاعر بعض الشعراء .

أما المجتمع فقد ظلت مظاهره المتخلفة على ما هي عليه ، واحتفظ بكثير منها قولها بسيطرته على الناس ومنهم الشعراء الموقف من المرأة ، ومن الطبقية و من الحرية ، ومن التكامل الاجتماعي و علاقاته .

كل ذلك يغيب أذهان عن القرن التاسع عشر، وحتى ما كان يصل منه إلى أسماع الشعراء ، فهو يمر مرور سحابة صيف ، إذ لم يكن يمتلك مجتمع ذلك القرن، استعدادهلا ستقبال القيم الاجتماعية الجديدة التي تتناقص به تمام التناقص مع القيم السائدة وقتئذ، بسبب تخلف المجتمع نفسه تخلفة شديدة فلابد أذن من مرور وقت طويل شخصية هذا القرن ، وحتى الشعراء منها أن تستقبل المفاهيم الجديدة والمثل المتطورة ، أنتي وجدنا بعضها بلوح في أفق مصر ولبنان على سبيل المثال .

بينما كانت آراء قاسم أمين ورفاعة الطهطاوي وهدى شعراوي ، تقوض صرح المثل القديمة في مصر، وكانت المرأة ـ كما عبر عنها حافظ ابراهيم في شعره ـ تسهم في تطور الحياة الاجتماعية والسياسية في

مصر ، كانت المرأة العراقية حبيسة البيت ، بل كان الرجل و نفسه ظلت القيم الاجتماعية والفكرية السائدة في العراق . لذلك أقتصر الشعر الاجتماعي العراقي ذلك القرن على الموضوعات التقليدية ، ولم يخرج الشاعر على شاعر معانيها القديمة .

ومن هنا فقد (غدت الخمرة أداة لتزجية الوقت وإضاعته ، وأجملها ما يكون مع الأصدقاء الذين انصرفوا الى ملاذّهم الجسدية وقد كاموا يختارون لمجالس الشراب خير الندمان الاندمان ، وأجمل الغلمان والنساء).

أما الغزل فقد أرتبط بالخمر ، ولم تكن صورة التجربة فيه أحسن حالا من صورته في الخمرة ، إذ لم يعبر عن تجربة شعورية صادقة ، بسبب غياب الحوافز الاجتماعية نفسها، البعد عن أجوائه ، وتبلد في شعوره به .

ولذلك فإن قصائد الغزل لم تحقق شيئا يذكر في مجال التجربة الشعورية والتجربة الفنية ، لأن الشاعر قد انكأ على المعاني القديمة وشوهها ، وأسف في استخدامها ولأنه لم يعيش التحرية كما عاشها الشاعر القديم نفسه .

ومن هنا جاءت أوصافه نادية حسية ، وصوره جاهزة مباشرة ، لا تتعدى لطاهر، ولا تغفور إلى أعماق الشعور ، دور، لأن الشعور نفسه قد تبلد ـ كما قلنا ، وربما تمثل أبيات الشاعر حيدر الحلي هذه الصورة.

وهكذا لا يكون غزل القرن التاسع عشر أفضل من خمر يأتيه ، وربما كان شاعر هذا القرن قد سلك قصيدة الغزل ووصف الخمرة ، جريا منه وراء الشاعر القديم ، وكذلك ليدل على انه يمتلك القدرة في نظم شعر الغزل والخمرة ، وهما غرضان أساسيان مهمان الشعر العربي ، إلا أنه حين فقد إحساسه الصادق بتجربته ، وفقد معه قدراته الفنية التي يصوغ بها تلك التجربة ، قد حالا بينه وبين فنيته .

وإذا كان شاعر القرن التاسع عشر لم يحقق شيئا يذكر في موضوعي الغزل ووصف الخمرة، فما الذي يمكن أن يحققه في موضوعات أخرى أقل شأناً ، كالمساجلات والأسمار والمناظرات !؟ أو كالموضوعات الاجتماعية الأخرى ، كالتهنئة بحفظ القرآن أو الزواج أو إقامة بناء ؟ وأمثال ذلك من الموضوعات التي ليست لها أية قيمة فنية . بل إن النظم

فيها يعكس هبوط الموضوع الشعري الذي تلهى به شاعر القرن التاسع عشر وهناك موضوعات أخرى حاول الشاعر أن يعبر عنها ، ولكن تعبيره جاء باردة لأنه لم يمتلك أساسا صدق الانفعال بها ، كوصف الترام والتلغراف وأسلاك الكهرباء والباخرة وإنشاء السدود وفتح الترع وإحياء الأنهر وإقامة الجسور وأمثالها .

حين يحاول الدارس أن ينتهي إلى تقويم فني لشعر القرن التاسع عشر ، يجابه العديد من الظواهر السلبية ، سواء في مستوى الشكل والمضمون .

فتجربة هذا الشاعر قد ابتعدت عن الصدق ، وغياب الصدق ـ وهو عنصر أساسي في التجربة الشعرية ـ معناه سقوط الشاعر وفساد شعره ، كما يرى ذلك النقد الحديث .

ولعل السبب في غياب عنصر الصدق ، إن تجربة الشاعر وقتئذ لم تكن نابعة من نفسه ، وصادرة عن شعوره ، بل كانت مفروضة عليه ، فهي أذن تجربة لا تستقر في شعور الشاعر نفسه.

وربما كان لفقدان الشاعر حريته الشخصية أثر في ذلك وربما كان أيضا الظروف الشاعر الخاصة والعامة وصلته بمجتمعه وبالأحداث ، وضعف ثقافته أيضا فالإحساس بالتجربة هو الذي يحقق الصدق في التعبير عنها ويمنحها حرارة وحيوية. وربما كان يبرود العاطفة أثر في شلّ نشاط الخيال وفاعليته وحيوية.

إذ الخيال لا ينشط كما يقول النقد ـ الأتحت تأثير العاطفة.

وهذا يعني أنضع الخيال صار مرهون بالشاعر شاعر ذلك القرن بضعف العاطفة ، مما أنتهى به إلى البعد عن التجربة الصادقة لاحظنا ذلك في معظم الموضوعات و خاصة المدح والغزل ووصف الخمرة .

وهذا لضعف في الإحساس بالتجربة ، والذي انتهى ببعدها عن الصدق ، هو الذي دفع الشاعر إلى المحاكاة والتقليد ، بعيدا عن عنصري الابتكار والأصالة .

وقد جرته تلك المحاكاة إلى استخدام صور الشاعر القديم ، واستعارة أجوائه ونضم الشعر بلغته مما انتهى به أحيانا الى الغموض والبعد عن الواقع .

وظاهرة المحاكاة تشكل أسوأ ظواهر الشعر في ذلك القرن ، فقد عاش الشاب العراقي في أجواء ما قبل الإسلام في معضم أعراض الشعر ، وخاصة المدح والغزل والخمرة والفخر.

ومن أكثر الشعراء سلوك هذه الأجواء محمد سعيد الحبوبى و العمري وعبد الغفار الأخرس وابراهيم الطباطبائي ، فقد عاش هؤلاء الشعراء في شعور أجواء ما قبل الإسلام واستهلوا قصائدهم بالوقوف على الطلل ، أو قدموا لها بمقدمة ، واستخدموا صورها، وأكثروا من ذكر أماكنها ، وبنوا صورهم من ألفاظها ، في حين منهم من نشأ في الموصل كالعمري والأخرس ، أو في النجف كالطباطبائي، ونراه جميعا على بغداد ، وما ذلك الأسلوكا منهم لمحاكات شعراء ما قبل الإسلام ، وفي غياب الإبداع عن النصيدة ، وبفقدانه يتعثر نقل التجربة إلى خارج الشاعر.

أذن من حرية تامة تتساوق مع مستوى التجربة وهذه الحرية هي التي تدفع العاطفة الصدق ، والخيال إلى الإبداع والموسيقى إلى الرنين والمطوعة) ويفقد شعر القرن التاسع عشر هذا التساوق الأدبي ، لأن الشاعر قد فقد عنصر الحرية ، وفقد معه عناصر الثقافة الأدبية ، وعاش في ظل المحاكاة التي لا نجد تجربة الشاعر ولا حياته ولا بينته ، وهذا هو السر في وقوعه في الضعف الفني .

والخيال هو أهم عناصر الصورة الشعرية ، لأنه يوحد الأشياء ويركبها وينظمها ، وهذا بالتالي يؤدي إلى تعميق الصورة وتجسيدها فتبدو أجمل من حقيقتها ، وهذا هو الذي دعا النقاد ومنذ عهد أرسطو إلى اعتبار الفن أجمل من الطبيعة نفسها .

وقد فقدت قصيدة القرن التاسع عشر هذا العنصر المهم ، بحيث أصبح خيال صاحبها الشاعر لا يختلف كثيرا عن خيال الرجل العادي . ومن هنا فسدت الصورة الافتقارها إلى أهم عناصر الصورة ، ويتمثل هذا في تشبيه عبد الغفار الأخرس دم القتلى.

كما يتمثل فساد الخيال في تشبيه عبد الباقي العمري ابتسامة ممدوحة بشفتين سوداوين كالدجا.

أما محمد سعيد الحبوبي ، فقد وصف صفاء خد الحبيبة فجعله (مرجا معشوشبة) وجعل من (الخال) الذي يجمل خد المرأة (طفح جلدية متقززة).

وهذا لعمري جبال فاسد ، لم يضفى جمالا إلى المرأة بقدر ما أضاف قبحا .

وإذا كانت الصورة أهم مظاهر الفن الأصيل ، لأنها حصيلة الخيال والعاطفة قبل كل شيء، فإن هذا المظهر الخطير قد فقد وظيفته في شعر القرن التاسع عشر بل يمكن القول إنه قد أفسده الى حد بعيد ولعل السبب في فقدان الصورة الجيدة ، هو أنها فقدت أهم عناصرها – الخيال كما ذكرنا ، ومعنى هذا أن الجزئيات التي تتركب منها الصورة قد فقدت العنصر الذي يوحدها ويركبها ، ويربط الجزء الوحدة منها بالآخر .

كما أن شاعر القرن لم يفهم ماهية التشبيه والاستعارة ، وهما أداتان تتولد بها الصور، فقد استخدمهما استخداما آليا يفتقد الحركة والحيوية والإيحاء ، ولذلك جاءت صوره جامدة ، تفتقد العنصر النفسي ، ومن هنا فقدت حرارتها وإيحاءاتها ، فاقتصرت وظيفتها على التزيين وحسب.

فهذه التشبيهات تشبهات حسية جاهزة ، انتزعت مما وقعت عليه عينا الشاعر وكأنها جاءت (تكديس لثروة لغوية خلت من الروحانية الحقيقية) .

بل أن معظمها منتزع مما وصف به الشاعر العربي القديم المرأة .

لقد أضفى شاعر القرن التاسع عشر على المرأة صفات : الشمس والقمر والهلال والبدر والصباح والنهار والنور والنار .. وكلها مستقاة من الواقع الحسي المنظور، كما أنهم من الجهة الأخرى شبهوا شعرها بالليل ، و وجهها بالصبح ، وعيونها بالنرجس ووجنتيها بالورد وثغرها باللؤلؤ وريقها بالعسل وقوامها بالبان ..... وهي تشبيهات مادية مستعارة من صفات المرأة في التراث العربي الذي أعجبوا به وقلدو، وكرروا صوره .

وهذا الاعتماد المقصور على الألفاظ الحسية في ـ عملية التصوير، هوا الذي ألغى العلاقات بينها ، ولذلك جاءت التشبيهات خالية من الإيحاء بعيدة عن التأثير ومن الغريب حقا أن يصف شعراء القرن التاسع عشر بعض مظاهر الطبيعة الخلابة الساحرة الموحية ، وصفة يمنح جمالها

وحيويتها وإيحاءاتها، وأقصد بهذا وصف الكواكب والنجوم وجاء كل جهدهم فيه رصفة لألفاظ الكواكب دون جهد فني بعيدا عن الإيحاء والتأمل المثير .

إن هذا الحشد اللغوي الذي ألف منه شاعر القرن التاسع عشر ، صوره دونما تركيب فني و تركيب جمالي يوحي بالحيوية والتدفق ، هو الذي جعل أحد الدارسين يطلق على التصوير في هذا القرن ب (شعر الرصف) لأنه يرتكز على (تكديس الصفات ورصف الألفاظ دون العناية بالصورة المتكاملة أو التفاعل معها والمدهش حقا أن تصوير شعراء هذا القرن لأروع مظاهر الطبيعة التي أشرنا إليها ، والتي منها أيضا مظاهر الربيع الموحية ، قد جاء جامداً ميتا لأنه فقد أهم عناصر التصوير الجيد ، وهو الخيال .

ومن هنا أعتمد محاكاة الصور القديمة وتمثل أبيات حيدر الحلي هذا الحشد اللغوي الذي يكتفي برصف ألفاظ الروض والربيع والنور والزهر والبرد والضياء والطيب والمسك والنسيم والغصون والورق والأيك ومن مظاهر الصورة الشعرية السلبية ، سذاجتها وبساطتها ، مما أبعدها عن العمق والإيحاء والتأثير ، ومرد ذلك في رأينا ، إلى ضعف ثقافة الشاعر ، وبعده عن الصدق الشعوري الذي يربطه بالتجربة . ولذلك تكررت لديه الصور ، وتكررت ألفاظها وعباراتها المؤلفة لها .

ومن أشد الظواهر الفنية في شعر القرن التاسع عشر بروز ظاهرة (الركاكة اللغوية والتي يعزى سببها إلى جهل الشاعر بأسرارها وجمالها ومفاتيحها ، مما يجعله أسير خوف دائم من الوقوع في اللحن وخطأ التراكيب) ولذلك وقعوا في شراك الأخطاء اللغوية والنحوية ، وكثر الخلل في أوزانهم والخطأ في قوافيهم والضعف في اساليبهم .

ومن مظاهر هذا، عدم التساوق بين العناصر الأساسية للقصيدة ، وخاصة الموسيقى والعاطفة والخيال ويسند هذه العناصر المهمة في القصيدة ، حرية نفسية في تناول التجربة الشعرية وفي آدائها .

وبما كان لضعف ثقافة الشاعر ـ وهو جزء من ضعف العصر كله ـ سبب في شيوع هذه الركاكة .

ومن مظاهر الركاكة عندهم ، شيوع العامية واستخدامها في الشعر.

(فالوابور) لفظة عامية. كما أن (الطرد والعكس) لفظتان بعيدتان عن لغة الشعر وحيويتها .

واستخدموا الألفاظ الدخيلة البعيدة عن الإيحاء ، كاستعمال عبد الغفار الأخرس اللفظة (جناب) وهي تركية.

ولم يتحرج الشعراء في استخدام العديد من الألفاظ التركية التي استعملت في حياتهم العامة أمثال (خان) و (فاقان) و (مزمان).

ويبدو أن ظاهرة الازدواج اللغوي لدي شاعر هذا القرن كانت مسألة لا تثير الحرج له إطلاقاً، وبدأ عند بعضهم (استخدام اللهجة العراقية الدارجة ، مثل كاظم السيتي وميرزة الحلي ويعقوب الحاج جعفر وباقر الهندي) .

ومن الظواهر الفنية التي أساءت إلى شعر القرن التاسع عشر التخميس والتشطير وهي ظاهرة طغت طغيانا شديدة، بحيث جعلت من حجم هذا الشعر اضعافا مضاعفة وربما تكمن خطورة هذه الظاهرة ، في أنها أفرغت الشعر من محتواه الفكري ، وقتلت ما بقي من معانيه السخيفة . وأتت على كل ما يتصل بمضمونه ، كما أنها أضافت إلى شعر هذا القرن سوأة أخرى ، إذا أقبل بعض الشعراء على تخميس وتشطير قصائد البعض الآخر بالتقريظ والتهنئة ، فتركوا في ذلك قصائد أخرى تخلو من الحياة ، ومن معاني الشعر وخصائصه الإنسانية .

وبذلك صار الشعر لعبة شكلية خالية من الجمال ، لأن ظاهرة التخميس والتشطير والتقريض لا تمتلك جمال الأداء ولأنها تمثل عجز الشاعر عن الابتكار وهكذا أفرغت قصيدة الشاعر من محتواها الفكري كما خلت من اي ملمح شكلي يلفت النظر ويتوقف القارى ويثير تأمله .

وبهذا سقطت القصيدة في وهاد الشكلية المقيتة ، والبحث عن كل ما يظن الشاعر أنه يضفي جمالا على قصيدته كالجناس والطباق والتورية والمقابلة الأوجه البديعة لازمة من لوازم شعر هذا القرن .

الباقي العمري يكرر لفظه (الخال) في إحدى قصائده ستا وعشرين مرة مختلفة المعاني في كل بيت .

ومن الظواهر الفنية السقيمة التي أحتفظ بها شعر هذا القرن التنظيم المشترك ، اذ يتفق شاعران أو أكثر على نظم قصيدة طويلة ، كالتلغيز

وحل الالغاز وعقد الاحاديث الشريفة النشر والترتيب ونظم اسماء السور .

وهناك الشعر الذي يؤرخ للأحداث ، وهو كثير كثرة مفرطة إذ(يدخل أحدهم في تاريخه الحروف المعجمية ، أو المهملة في حساب الجمل تجيء قصيدة للشاعر وفي كل شطر منها تاريخ ، أما الحوادث والاشياء التي تؤرخ ، فكل ما يخطر على بال. إنسان ومالا يخطر أيضا من أتفه الحوادث اليومية.

وهناك نوع من التظم يسمونه (الروضة) إذ ينظم الشاعر قصيدة كاملة على حرف – واحد من حروف العربية بحيث تبدأ كل أبياتها بهذا الحرف وتنتهي به .

ومن قبيل الصناعة الشعرية ما يسميه عبد الباقي العمري (الجمع بين التقريض والتسميط والتخميس والتشطير والتشنيف، بحيث تقرأ القصيدة من كل الوجوه والأماكن طولا وعرضا ومن اليمين إلى الشمال وبالعكس .

والواقع أن توفير هذه الأصناف الشكلية في القصيدة ، لا يعد في نظرهم عيبا أو قدحا في الشعر ، بل يعد تفتنا بعكس قدرة الشاعر على حد مفهوم الفن الشعري لذلك العصر . ولذلك يضع القرن التاسع عشر عبد الباقي العمري ـ وهو أكثرهم تفنا في هذه المسائل ـ في مقدمة شعراء القرن لما له من طول باع وقدرة بارعة على توفير الأشكال الهندسية للقصيدة .

كان لغياب النقد الأدبي أثر في شبوع الظواهر الفاسدة في الشعر .

يبقى أن نقول وفي القول تذكرة ببعض الملامح الإيجابية التي وقفنا عليها ، والتي تشفع لشعر القرن التاسع عشر ، ونقصد بذلك الشعر السياسي الذي يمتلك مضامين قومية لا أو واقعية ، والتي صدرت من مجموعة من شعراء أمثال العمري والأخرس والجميل والتميمي والشاوي و أمثالهم .

لقد كان في قصائدهم التي تصدوا فيها للعسف والاستبداد ، وفي ما نظموه و دفاع عن الإنسان وعن شعوره وحياته وحريته ، ما يخفف عنهم سوأتهم التي تحدثنا عنها ، ويضعهم في عداد الشعراء الذين كانت لهم وقفات إنسانية إيجابية ، كما لا يخلو العديد من قصائدهم من سمات فنية توفر العواطف الحارة والتجارب الصادقة والمشاعر الإنسانية الرقيقة ـ

على قلتها - ولنا أن نقول أيضا ، أنت شاعر ذلك العصر لايمكن أن يتحمل وحده ما قدمه من عقم فني ، فالعصر بكل ما فيه قد أسهم في تقديم تلك الصورة